

آية القيسي تكتب: نحو فهم أعمق لأم العلوم.. مراجعة كتاب "قصة الفلسفة"

من الضروري أن نعرف ان قراءة الفلسفة مهمة و ضرورية لكل قارئ ومثقف، ويجب أن لا تخلوا مكتبة القارئ منها، انا اليوم بصدد مراجعة لأهم كتاب قرأته بعالم الفلسفة للفيلسوف ول جيمس ديورانت، سأكتب بشكل مبسط عن هذا الكتاب وأتمنى ان يكون بقائمة القراءة القادمة لمن لم يقرأه بعد.

ول جيمس ديورانت:

ولد الفيلسوف والمؤرخ ول ديورانت عام ١٨٨٥م بولاية ماساتشوستس الأمريكية، وتلقى تعليمًا كاثوليكيًا في طفولته، ولكن سرعان ما تحول إلى التعليم المدني وحصل على البكالوريوس في الآداب عام ١٩٠٧م، ثم ماجستير في السنة التالية.

مارس الفيلسوف العبقري مهنة الصحافة، ليركها ويتحول إلى مهنة التدريس الأكاديمي في الكلية التي تخرج منها عام ١٩١١م، ودرس بعد ذلك في المدارس الفرنسية وهناك أحب إحدى تلميذاته وتوثقت علاقته بها فتزوجها وهي تدعى (أدا كوفمان). ثم تابع ديورانت دراسته حتى حصل على الدكتوراه في الفلسفة عام ١٩١٧م، من جامعة كولومبيا. و كانت رسالته بعنوان "الفلسفة والمشكلة الاجتماعية" و كتب ديورانت العديد من المقالات وألف عدة كتب منها "قصة الفلسفة" و"قصة عقل واحد وحقية واحدة" و"قصور الفلسفة" و"قضية الهند" و"مباهج الفلسفة" و"مغامرات في العبقرية" والعديد من المؤلفات غير هذه، وهناك سيرة ذاتية أيضاً كتبها بالاشتراك مع زوجته.

لكن هذه الكتب جميعاً لم تحقق نجاحاً بقياس ما حققه كتاب "قصة الفلسفة" الذي أصدره في عام ١٩٢٦م فقد لاقى هذا الكتاب نجاحاً كبيراً في السوق وصار من أكثر الكتب رواجاً ومبيعاً، حتى ان ديورانت تحرر من رق الوظيفة وعناء التدريس بسبب عوائد هذا الكتاب التي وصفها بـ"بيضة من ذهب" وفي عام ١٩٢٧م، ترك التدريس وتعليم الفلسفة وتفرغ للكتابة والتأليف.

كان حديثاً مختصراً عن حياة ديورانت ومسيرته العلمية ونتاجاته الفكرية، لان من الضروري التعرف على سيرة وحياة أي كاتب نقرأ له، والا كيف نقرأ لشخص لا نعرفه !

قصة الفلسفة؛

هذا الكتاب يوجه بالحديث عن بعض الفلاسفة في القرن السادس عشر والسابع عشر، محاولاً إظهار الشخصيات الفلسفية محملة بمكنوناتها بأسلوب شيق وواضح ومباشر، بحيث تُذلل المعاني للأفهام، بعيداً عن عادة المتفلسفين في كتابتهم الصعبة والمعقدة وهنا نتأكد ان ديورانت يهدف بهذا الأسلوب إلى الوصول حتى لاذواق متوسطي الثقافة .

يتكون الكتاب من "٢٠٩"صفحة فقط، وله ترجمتان إلى العربية لأحمد الشيباني ولفتح إلى المشعشع. يحتوي على أربعة فصول، لاول تناول به أهم أعلام الفلسفة الانجليزية (١٦٤٨-١٧١٥) اما الثاني فكان عن الدين والعقل في فرنسا (١٦٤٨-١٧١٥). والثالث عن أهم فلاسفة القرن ١٧ وهو المؤرخ الهولندي باروخ سبينوزا (١٦٧٧-١٦٣٢).

واخيراً الفصل الرابع يتحدث عن ليبنتز الفيلسوف الألماني، (١٦٤٦-١٧١٦) ولاحظنا ان الفصلين الاخيرين كرسا للفلاسفة الأوروبيين ومن ثم الأمريكيين.

ولأن الفصول كثيرة، سأكتب نبذة عن فلسفة ورأي الفيلسوف سبينوزا حول العقل البشري.

يشمأز سبينوزا من النظرة المسيحية إلى الحياة بأنها وادٍ من الدموع، وإلى الموت بوصفه مدخلاً للنعيم أو الجحيم، وقد أحس بأن هذا يلقي حجاباً كثيفاً من الكآبة على نشاط البشر.

ويقول ايضاً ان أكبر هبة يمكن أن تمنحنا إياها المعرفة هي أن نرى انفسنا كما يرانا العقل .

وضعف تأثير ليبنتز عندما قلت قيمة لاهوته أمام الوعي الأخلاقي عند الناس، وعلى مدى جيل بعد وفاته أعاد كريستيان فون ولف صياغة فلسفته صياغة جيدة جداً، وفي هذا الشكل اصبحا النمط الفكري السائد في الجامعات الألمانية وكان أثره خارج ألمانيا يسيراً .

وهكذا لسوء الحظ او حسن الحظ وضع القرن السابع عشر أسس الفكر الحديث. وقد كانت النهضة مقيدة بالآراء القديمة التقليدية والطقوس الكاثوليكية والفن الكاثوليكي. وكان الإصلاح الديني مرتبطاً بالمسيحية البدائية و عقيدة العصور الوسطى.

أما هذه الحقبة الغنية الحاسمة، من جاليلو إلى نيوتن، ومن ديكارت إلى بيل، ومن سيكون إلى لوك، فقد ولت وجهها شطراً مستقبلي غير معلوم بشر كل أخطار الحرية، وهي حقبة استحققت ربما حتى أكثر من القرن الثامن عشر أن تسمى "عصر العقل"، لأنها على الرغم من أن المفكرين فيها طلبوا أقلية ضئيلة، فإنهم أظهروا اعتدالاً أحكم، وسبراً أعمق لأغوار العقل والحرية وما يكتنفهما من مشاق.